

زالت تهزها ، وقال لي احدهم : « كانت زلزالا ، والأرض عينها مادت تحت أقدامهم وما زالت تتحرك » . وحين سألت عن سبب ردة الفعل ، المفردة في نظري ، أعطيت ثلاثة أسباب . أولا ، الصورة الفجائية والمفاجئة للهجوم العربي ، نظرا لعدم وجود أي تزايد في التوتر قبله . ثانيا ، وهو الأمر الأهم ، كان الفرق بين حالة الحرب والمزاج السائد في إسرائيل قبلها . غذاك المزاج كان اقتناعا راسخا بأن إسرائيل قد حققت أخيرا هدفها النهائي — السلام لجيل آخر على الأقل ضمن حدود مثالية . ثم جاءت الحرب التي تبين انها اول حرب حقيقية خاضتها إسرائيل ابدا ، فهي المرة الاولى التي اضطر فيها الجنود الإسرائيليون الى خوض قتال ضار قتلوا فيه وتشوهوا بأعداد كبيرة . واكتشفوا انهم في حين ابتهجوا وتفاجروا بالإنهزتين العسكريتين لعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ ، فانهم لم يجبوا اطلاقا الحرب الحقيقية ، والقتال الحقيقي . من يحبهما ؟ ولذا عاد الجنود الاحتياطيون المثقفون الشبان حاملين معهم أسئلة : اذا كنا سننجر على خوض حرب من هذا النوع ، حرب قاتلة حقا ، مرة كل خمسة أعوام او ستة ، وستكون دموية أكثر على الأرجح في المرة التالية ، فأي نوع من الدول هي تلك الدولة التي زجتنا في حالة كهذه ؟ لماذا يكون لي أي دور في هذه الحالة الرهيبة ؟ ومن هنا الزيادة الصغيرة ولكن البالغة الدلالة في الهجرة من إسرائيل . ومن هنا ، ايضا ، ادراك أقسام كبيرة من القيادة الإسرائيلية ، ومن الانتلجنسيا ورسائل وسائل الاعلام بأن حلا وسطا مع العرب ، وخصوصا مع الفلسطينيين ، هو الطريق الوحيدة الى السلام . وأضيف بسرعة هنا ان الحل الوسط يتصور استمرار إسرائيل كدولة يهودية منفصلة ، أقل اقتضارا على اليهود ، ولكن ليس بالضرورة كدولة صهيونية . واني أشك في ما اذا كان هناك ، حاليا ، أكثر من ٢٠٠ اسراييلي يقبلون بفكرة دولة علمانية ، ديموقراطية ، وقد قرئت مقالة نايف حواتمة على نطاق واسع وبصورة جديده ولكنها لم تكسب انصارا كثيرين ، هذا اذا كسبت أي نصر . ولكن حينما سألت الاسراييليين اذا كان هذا الموقف الجديد يعني انه يمكن الآن التوصل بسهولة وسرعة الى تسوية كان الجواب ، المستغرب ، « كلا » . وشرحوا قائلين ان السبب هو انه ، في حين حدث اهتزاز كبير للافكار المكونة

أما الحجج السلبية فكانت تتركز على فقدان الاسراييليين لاعصابهم بعد تشرين الاول ( اكتوبر ) الماضي ، فقد ارتعد الاسراييليون مما حدث آنئذ الى حد انهم ، ولاشهر بعد ذلك ، تركوا الفلسطينيين وشأنهم الى أقصى حد ممكن . فقد أوقفوا عمليا تنويرهم واستئسادهم ووخز الابر والمضايقات . ولما عاد الوجود الاسراييلي ، ببطء ، ليؤكد نفسه من جديد ، كان من نوع مختلف ، فقد خفت الغطرسة والسلوك السيء . والروح التوكيدية الجديدة للفلسطينيين ، التي كانت ستجلب التوبيخ وحتى العقاب في الماضي ، صار يصغى اليها الآن بتهذيب على الأقل . وكما قال لي احد ابناء الضفة الغربية : « عندما تكون لدي أية معاملات مع المسؤولين الاسراييليين الآن ، انفخ دخان سيجارتي في وجوههم » — وهي ايماء تافهة ، وربما كانت مراعاة بعض الشيء ، ولكنها ذات دلالة بالغة رغم ذلك . ذلك انه عندما يفقد المحتل الاجنبي ارادته في الحكم ، المرتكزة على ايمانه في قدره الامبريالي ، فان نظام الاحتلال ذاك ينهار .

واستنادا الى ما سمعته من مصادر معلوماتي الاسراييلية الخاصة ، يمكنني القول بوثوق ان هناك ، يقينا ، بين طبقات الانتلجنسيا والمثقفين الاسراييليين شككا عميقا على الأقل في قدر إسرائيل الصهيوني ، أي الامبريالي ، ومع ان مكوثي في القدس كان قصيرا ، للأسف ، فانني لم أطلب وقتا أطول لاكتشف ان الاسراييليين والمجتمع الاسراييلي قد سببت لهما حرب تشرين ( اكتوبر ) هزة أعمق بكثير مما حبلتنا على الاعتقاد كل التقارير الخارجة من إسرائيل . والاسئلة التي تطرح وتناقش باسهاب في الصحف والراديو والتلفزيون هي التالية : ما هي غاية إسرائيل ؟ ما هو موضع دولة صهيونية في الشرق الاوسط ؟ هل يجب ان تكون إسرائيل في الشرق الاوسط على الاطلاق ؟ هل الصهيونية حركة قومية أم وكالة سفريات ؟ ( أنا ، شخصا ، سررت بنوع خاص لهذا السؤال الاخير اذ كنت قد الفت كتابا حاولت فيه ان أثبت ان الصهيونية هي مجرد وكالة سفريات وليست حركة قومية ) . وابدت ملاحظة حول عمق الشك الذاتي لمصادر معلوماتي الاسراييلية فاجابوا جميعا بانني ، كغريب ، لا يسعني ان اعلم الى أي حد عميق هزت حرب تشرين ( اكتوبر ) إسرائيل وما